جزيرة ارواد ، صخورها البحرية ومراسيها

استكشافات بحرية

بقلم

اونور فروست

تعريب وتلخيص : الدكتور بكري الأسود

يستدل من النصوص بأن أرواد كانت مرفأ هاماً منذ أقدم العصور . ولكن معلوماتنا الأثرية حولها ما تزال ضئيلة . ويرجع ذلك إلى أن عناصر هامة ، في مثل هذه المواقع ، تغمرها المياه ، ولما كان كل بناء يؤدي وظيفة ، فإن تحليل مرفأ ما يتطلب معرفة عامة . ان علم الآثار البحرية ما يزال في بدايته ، ولكن ارواد لا تتطلب حفريات فنية تجريبية لأن الدراسات الطوبوغرافية ستكفي لإيضاح المشاكل المطروحة على بساط البحث فيما يلي ، وهي المقدمة التي لا بد منها لأي اسبار أو حفريات تجري في أماكن معينة .

في هذه السنة ، وخلال الأيام الثمانية التي قضيتها فقط ، ومع الوسائل القليلة التي كانت تحت تصرفي ، كان لابد أن تكون ملاحظاتي مقتضبة . ان الهدف من الأبحاث التي أجريتها يتلخص فيما يلي :

١) اجراء تحريات على السطح وتحت الماء فيما يتعلق بالجزيرة وأعماقها وصخورها وبقدر الامكان المنشآت المرفئية لمستعمرات ارواد الستة .

٢) التحقق بواسطة صيادي الاسفنج من وجود حطام أثرية بالقرب من شواطىء ارواد .

٣) دراسة استعمال المرامي الحجرية حديثاً وما تعطيه من إيضاح بالنسبة للمرامي النذرية من عصر البرونز التي عثر عليها في المعابد التي تم تنقيبها على اليابسة .

المرفأ وحدة وظيفية ـ طريقة تأريخه :

أن تحديد عصر سور ارواد والهدف من بنائه هو من الأمور القابلة للمناقشة . ويبدو من فحص المرفأ كوحدة وظيفية ان هذه الجدران كانت في الدرجة الأولى وسيلة من وسائل الدفاع ضد البحر . والظواهر تدل على أنها كانت موجودة في العصر الهلنستي ، ولكن مجموع المنشآت يدل على عصر اقدم كانت فيه وسائل البناء تحت الماء مجهولة .

ان بناء جدران البحر ناتج عن شق الحفرة التي تفصلها عن البلدة . وهذا أمر لم يقره أحد في السابق . فإن الجدران كانت تعتبر كوسائل لصد غارات الأعداء ، وكان الانتباه مسلطاً على كتل الاحجار الضخمة في بعض أجزاء السور . وبالتالي فإن تحديد تاريخ معين كان يعتمد على أسس تاريخية أو عمرانية . ونتج عن ذلك تقهقر في تحديد العصور ، من العصر الفينيقي إلى الهلنستي ومن الروماني إلى الصليبي . ولكن من الضروري أن نبدل وجهة نظرنا ؛ وبدلاً من التعلق بالأحجار المضلعة الضخمة أن نتجه نحو فحص مراحل عملية البناء . إن ثلث جدران البحر ، في الجهة الغربية ، منحوتة في الصخر (اللوح ١ و ٢ والشكل ١) . وحيثما كانت الصخور قريبة من قعر البحر فإن الأساسات المنحوتة في الصخر كانت تكمل بالبناء . وفي بعض الأماكن النادرة التي كان الصخر يصل فيها إلى قرب سطح الماء فإن الجدران بكاملها من الحجر المنحوت . وأهم مافي هذه المجموعة هي المنطقة المستوية خلف الجدران التي تحيط بالجهات الثلاثة المكشوفة من الجزيرة . ان الجدران المنحوتة في الصخر وكتل الأحجار الضخمة جميعها ناتجة عن شق هذه المنطقة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه المنطقة ذات القعر المستوي مملوءة بقواعد أو أساسات الأبنية (اللوح ١ ، ٢) . وهذه الأبنيه لم يكن بالامكان تشييدها قبل تسوية هذه المنطقة وإقامة الجدران . وبما أن أرواد كانت مرفأً في جميع العصور فيمكننا أن نستنتج بأن هذه الأساسات هي بقايا مستودعات .

ولا بد بالنسبة للجزيرة الصخرية من استبعاد طريقة التأريخ على أساس طبقي ؛ وان اختلاف التفسيرات نفسه يؤكد عدم وجود طابع خاص لكتل البناء الضخمه . بل ان أساسات الأبنيه الموجودة في المنطقه المستوية تشابه على العكس نماذج من الأبنية المكتشفة في طبقات معينة من الحفريات على اليابسة . ان تحديد تاريخ بناء سور أرواد يجب أن يعتمد على مراحل البناء التي لاتقبل الجدل . إن الأساسات الأولى التي بنيت فوق المنطقة المستوية تحدد لنا تاريخ بناء الجدران (الشكل ١ والألواح ٥ و ٦) .

إن كل شيء يدل على أن جدران البحر أقدم من الأحجار الأولى الموضوعة في المنطقة المستوية . وتأريخ ذلك يتطلب مسحاً طوبوغرافياً دقيقاً ، يتلوه اعادة تصميم المنطقة معمارياً واجراء المقارنات من الناحية الأثرية .

وظيفة المنشآت :

إن عمليه المسح الطوبوغرافي هذه ستبين لنا وظائف بعض المنشآت الموضحة على المخطط المبسط الذي أمكنني عمله في هذه السنة (أنظر الشكل ٢) . ويجب أن تشمل عملية المسح التضاريس البحرية والبقايا المغمورة بالمياه . لماذا كانت تستخدم مثلاً أبواب البحر الثلاثه ذوات العتبات المبلطة والتي تخترق السور المنحوت في الجهة الغربية ؟ الجدران هنا مزدوجة بينما الأبواب تتصل مع البحر بشق ملتو . ومن المحتمل وجود باب رابع ومكان لرسو الزوارق عند « بنت ارواد » . إن هذه الصخرة فصلت عن الجزيرة بعد بناء السور سواء عن طريق الخسف أو عن طريق التآكل البحري . وهناك بقايا بناء على الطرف الغربي من المنحدر الذي يصل الصخرة بالجزيرة .

إن وجود انهدامات في أماكن أخرى من الجزيرة واضح ، كما توجد انهدامات فوق خط الصخور والأعماق الكائنة في الجهة الجنوبية من ارواد (أنظر الشكل ٣) . وإن القيام بأبحاث طوبوغرافية وجيولوجية للتحقق من هذه الظواهر يفيد في توضيح وتأريخ هذه الجزيرة وسنعود إلى هذا الموضوع .

أما المرفأ فإنه ينقسم بواسطة سلسلة من الصخور الطبيعية إلى خليجين . وبحسب الأعراف المحلية كان الخليج الجنوبي في الماضي أكبر بمرتين من الشمالي . وهذه النظرية تؤيدها تضاريس

الجزيرة مما يناقض حقيقة وجود الانهدامات ، مالم يثبت بأن الردم نشأ عن الرغبة في توسيع المدينة . ويزعم سكان الجزيرة بأنه عثر في هذا الحي تحت أنقاض البيوت الحاليه على بقايا أرصفة قديمة . فإذا صح ذلك فإن هذه البقايا تعطي أساساً اضافياً يساعد على تحديد التاريخ .

وإلى جنوب هذا الخليج يوجد مستودع صغير يشاهد مدخله ، المشيد بأحجار كبيرة ، تحت الماء خارج حوض حديث . وموقعه يوحي بأنه كان يستعمل إما كمستودع بحري مغلق أو كمكان لاصلاح الزوارق (أنظر اللوح ٢ ، ٤ والشكل ١) وإن الطريقة المثلى لايضاح هذه البقايا هي القيام بمجموعة من الأسبار لمعرفة حدود هذا المستودع وعمقه الأصلي وامكانية العثور على بلاط في أرضيته .

الملاجىء والمستعمرات الاروادية على اليابسة :

ان ارواد تشكل جزءاً من سلسلة التضاريس الصخرية المميزة للساحل السوري اللبناني . وتحوي هـذه السلسلة على خمسة جزر صغيرة وهي العباس ، ابو على ، موشاره (ميشرون) والجورة وتبة الحمام (الشكل ٣) . ولم يتسع وقتي لاستكشاف التضاريس شمالي جزيرة ارواد ولا الجزر في عرض بالتوس وغابالا .

في جزيرة العباس شاهد رونان بقايا أبنية ، كما عثر على تمثال مغمور في الرمال قرب عمريت . أما الأب بوادوبارد فإنه يتحدث في كتبه عن مرافىء صور وصيدا عن أهمية التضاريس البحرية في العصور التي سبقت اكتشاف أساليب البناء تحت الماء . فعلى هذا الساحل المحروم من الموانىء الطبيعية ، كل صخرة في عرض البحر تقدم ملجأ مع بعض العمق الصالح ، كانت تطوّر وتعدّ لرسوّ المراكب ، وذلك بأن تسوي الجهة الأمينه ليجعل منها رصيفاً تحميه الصخور الطبيعية من الجهة الثانية ، التي يمكن زيادة ارتفاعها عند الضرورة بإلقاء الأحجار الناتجة عن تسوية الجهة الأولى فوقها .

وفي مثل هذه الأحوال فإن لكل صخرة أهميتها ، وأن سعة المرفأ تتوقف على طبيعة المنطقة الجغرافية . ففي حماية الصخور كانت المراكب تفرغ حمولتها ، التي كانت تنقل بعد ذلك بواسطة الزوارق الصغيرة ، وفيما عدا خليج غابالا ، والملاجىء المحفورة في الصخر عند مصبّ نهر السنة

في بالنوس (انظر اللوح ٣ والشكل ٤) ، والرصيف المبني بالاحجار عند تبة الحمام ، فإنه لا يوجد في المستعمرات الاروادية إلا قليل من المرامي الطبيعية أو بقايا المرافـىء الرومانية . ولهذا فإنه من الضروري التفتيش بدقة على السطح وتحت الماء عن جميع البقايا القديمة فوق الصخور المحاذية للساحل .

أساليب الملاحة والحطام القديمة :

حتى ولو أن هذه الصخور لم تكن ملاجىء للمراكب فإن سببين آخرين يبرران استكشاف أعماق البحر . الأول امكانية العثور على مايمكن تسميته بـ « مقابر المرامي » المفقودة ، وهي من الأمور المعروفة لدى كل الغطـاسين المتهنين في البحر الابيض المتوسط . فإن المراكب القديمة التي لم تكن تستطيع السفر بمعاكسة الريح كانت غالباً ماتضطر للالتجـاء بالقرب من الصخور القريبة بانتظار هبوب الرياح المواتية . وكثيراً ماكانت تفقد مراسيهـا في مثل هذه الاماكن غير المعدة للرسو . ويصادف الغطاسون في بعض الاماكن مرامي من الرصـاص من العهد الهلنستي أو الروماني ، بينما تكثر في بعض الأماكن الأخرى المراسي الحجرية . وبالاستناد لأنواع هذه المراسي فإن المقابر المشار إليها تزودنا بمعلومات عن الملاحة وطرقها في العصور الغابرة .

ومن ناحية ثانية فإن حطام السفن توجد غالباً على مقربة من الصخور . والتعليمات البحرية تحذر الملاحين الغرباء عن المنطقة من خطر الصخور المنتشرة حول ارواد . اذ أن الارتطـام بصخرة بارزة حتى مستوى سطح الماء ، كصخرة كويريك المعروفة محليا ، كافٍ لاغراق المركب بسهولة . والمراكب التي ترتطم بالصخور وتتحطم لا تترك إلا بعض آثار حمولتها . أما المراكب التي بعد تصدعها تغوص في الماء وتتوضع في قعر البحر فوق منطقة رملية على عمق ٢٠ ـ ٣٠ مترا ، فإنها تصادف شروطاً أفضل لبقائها . إذ أنها في ملجأ من الانواء والتيارات تغمرها الرمال وتحفظها مع حمولتها .

التضاريس الصخرية حول ارواد ـ نتائج الاستكشافات :

أثناء الزيارتين اللتين قمت بهما لهذه الجزيرات والغطس في الأماكن المجاورة لها تأكدت لي الأهمية الأثرية لهذه المنطقة .

ففي جزيرة العباس لم اعثر على بقايا بناء ، ولكن آثار النحت ظاهرة في الصخور ، مما

يدل على أن الجزيرة ، كبقية الجزر الأربع الأخرى ، كانت تستخدم في وقت ما لقطع الاحجار . واسم « الجورة » الذي يطلق على إحدى هذه الجزيرات يدل على طبيعة الصخور التي تتألف منها .

وبين العباس وكويريك ، حيث العمق لا يتجاوز المترين ، توجد آثار نحت وبناء تحت الماء تشكل انخفاضا ، يبلغ عرضه في بعض الأماكن ٦٠ سم وارتفاعه ٢٥ سم وطوله ١٠ م مما يدل على اعداده ليكون قاعدة لبناء . وربما ساعدت عملية المسح في المستقبل على تحديد الغاية من تشييد مثل هذه الأبنية .

وكذلك فقد عثر على عمق ٦ أمتار بين أبو علي وموشاره على حمولة مركب من العهد الهلنستي مبعثرة على مسافة ١٠٠ م تقريباً ، وقد اعلمني صائدو الاسفنج أنهم عثروا في شمالي الجورة على عمق ٢٠ متراً وفوق الرمل على حطام سفينة محملة بأعمدة صغيرة من البازالت الأسود . وأحد هذه الأعمدة تمكن مشاهدته بين الصخور على عمق ٧ أمتار . ورغم أنني لم استطع مشاهدة هذا الحطام شخصياً أثناء الغطس بسبب قصر الوقت وقلة مؤونتي من الهواء المضغوط ، فإنني لا أرى سبباً للشك في وجوده ، لأنه لا توجد لصائدي الاسفنج أية فائدة في الكذب أو التستر على حطام من الأعمدة التي لا قيمة تجارية لها .

أنه من الصعب على غير الغطاسين من أهالي المنطقة العثور على هذه الحطام ، لأن هؤلاء يعرفون منطقتهم جيدا . إلا أنهم من ناحية ثانية تنقصهم الخبرة في تفسير الظواهر الجيولوجية الناشئة عن ترسب الحطام . فهم لا ينتبهون مثلاً إلى أن العثور على بعض الكسر الفخارية فوق مرتفع من الرمل يدل على وجود حطام كامل غمرته الرمال البحرية .

وقد حدثني غطاسو ارواد عن مجموعات من الجرار وعن تمثال رجل شاهدوها في قعر البحر ، وفي متحف طرطوس توجد أربعة قوارير ، ذات اسلوب فارسي وروماني وبيزنطي ، استخرجت من البحر . وحالتها تدل على أنها كانت مطمورة في الرمل أي من حطام محفوظة بصورة جيدة .

ان كل شيء يدل على وجود حطام قديمة في المناطق المحيطة بأرواد . ولتكوين فكرة واضحة عن التجارة المحلية في العصور الغابرة لا بد من تثبيت مواقع هذه الحطام على مخطط بحري مع الملاحظات المتعلقة بكل موقع ، وأهمية الحطام الموجودة فيه ، وحالتها وأوصاف

الحمولة الخ ... إن مثل هذه الدراسة تعطينا معلومات أثرية هامة ، بينما يجب تجنب التنقيب عن هذه الحطام قبل ذلك .

إن أية عملية تنقيب نظامية تتطلب نقل كميات كبيرة من الرمال والمواد تحت الماء، وذلك يحتاج لوسائل ضخمة . وإذا كانت الغاية هي اعادة تجميع المركب القديم مع حمولته ، فإن العمل يجب أن يجري تحت اشراف غطاس على درجة كبيرة من المعلومات المقارنة عن تشكل الحطام ، على أن يتعاون مع أحد علماء الآثار .

المرامي الحجرية :

لاتزال المرامي الحجرية تستعمل من قبل الصيادين على الساحل . ورغم أنها أقل فعالية من المرامي الحديدية المتشعبة فإن استعمالها حتى الآن يرجع لأسباب اقتصادية أو تقليدية . والارواديون يستعملونها أيضاً عند الغوص وبسبب الأماكن الخاصة التي يصطادون فيها .

إن غطاسي الجزيرة قادرون على البقاء تحت الماء أكثر من دقيقة بدون معدات خاصة . وهم يستعملون في الغطس المرامي الحجرية . وقد تأكدت بنفسي من قدرة شخص في الأربعين من عمره على البقاء تحت الماء لمدة دقيقتين على عمق ٢٠ متراً . كما أكد لي بعض الشبان قدرتهم على الغوص حتى ٣٠ متراً .

والارواديون يرسون غالباً على الصخور في عرض البحر وبطريقة خاصة . يقذف أحدهم بنفسه في الماء ثم يعلق شعب المرساة بين الأعشاب التي تنبت على الصخور الكلسية . ويلاحظ أيضاً بأن شباك الصيد أو الشراك تزود غالباً بمرامي صغيرة من الحجر .

إن هذه الاستعمالات الحديثة تساعدنا على تفسير استعمال المرامي النذرية في عصر البرونز . والفرق الظاهر بين المرامي الحديثة والمرامي القديمة هو حجمها . فإن بعض النماذج القديمة تزن نصف طن . وعندما كنت أصف لعميد الغطاسين الارواديين المرامي النذرية الكبيرة المكتشفة في اوغاريت أكد لي بأنها لم تعد مستعملة منذ فترة طويلة حتى في زمن أبيه وجده . ولكنه أضاف بأنه ، إذا كانت هذه المرامي الكبيرة تهمني ، يستطيع اطلاعي على مجموعة منها توجد في عرض البحر عند مصب مراتوس . كما أن مجموعة أخرى توجد في أطلال المعبد

بعمريت . ولم يساعدني الوقت على الذهاب معه ، ولكن عند زيارتي المعبد لم أشاهد مرامي . ولكن من الممكن أن تكون موجودة في مكان آخر بين الأطلال . واقد شاهدت نموذجاً من الحجم الكبير في البحر في الجهة الجنوبية الغربية من أرواد نفسها .

جميع المرامي الحجرية الحديثة التي شاهدتها في الجزيرة مسطحة ومثلثة الشكل تقريباً ، ولها ثقب واحد أو ثلاثة ثقوب ، الأعلى منها مخصص لربط الحبل . أما المرامي ذات الثقب الواحد فهي مخصصة للغطس فقط . والشكل المألوف يحتوي على عصا خشبية واحدة أو اثنتين ذوات مقطع مربع ونهايتين مدببتين ، وهما مثبتتين في ثقبين في طرفي قاعدة المرساة . وبعض هذه المرامي لها ثقب في الوسط . إن الأحجار المستعملة هي غالباً من البازلت أو الحجر الرملي أو الكلسي .

الخلاصة :

إن القيام باستكشافات لمدة عدة أيام خلال هذه السنة في جزيرة أرواد كان كافياً ليثبت لنا بأن القيام بحملة منظمة مع المعدات اللازمة سيؤدي إلى نتائج هامة جداً . إن التجارة في عصر البرونز ، المعروفة بفضل الحفريات الجارية على اليابسة ، لايمكن ايضاحها على هذا الشاطيء المحروم من الموانيء إلا بدراسة المرافيء الكبرى لجزر فاروس وصور وأرواد التي تحتوي على ملاجيء .

إن مثل هذه الحملة تتطلب مؤونة من الهواء المضغوط كافية لقيام أحد الغطاسين باستكشاف الحطام المغمورة . وبعد تهيئة المعلومات البحرية تحدد أماكن الأنقاض بواسطة علامات فواشة ثم يجري نقلها على المخطط من قبل أحد الطوبوغرافيين الذي يعمل على سطح الماء .

إن جزيرة أرواد تمتاز ، من بين هذه الجزر – المرافيء الثلاث الكائنة على الشاطيء الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، بقلة تعرضها للرمال ولاعادة البناء . ولا زالت بقاياها حتى الآن بمنأى عن أيدي علماء الآثار بسبب كونها مغمورة تحت الماء .